صورة الأتراك في الرواية الشامية

د. محمد طه كايد الشبول

دكتوراه في اللغة العربية وآدابها

وزارة التربية والتعليم / الأردن

mohammad2shbool@gmail.com

الملخص :

الدولة العثمانية من أهم الدول التي امتد نفوذها إلى الدول العربية وحكمتها لسنوات طويلة، فقد تأثرت هذه الدول بكل تغيرٍ طرأ على الدولة العثمانية من ضعف وقوة ومن انتصار وهزيمة؛ لذا كان لها نصيبٌ في الأدب العربي من شعر ونثر. وفي دراستنا هذه سنلقي الضوء على نصيبها في الروايات العربية، وقد تم استقراء صورة الدولة العثمانية في أربع عيناتٍ من النصوص الروائية العربية بشكل عام، وهذه النصوص أنجزت في أزمنة مختلفة في الأعوام 2005 و2010 و2012 و2016، وهي تنتمي لأربعة أقطار عربية هي: (سوريا والأردن ولبنان وفلسطين)، فقد تتبّع الباحث فيها صورة الأتراك. وقد وقع الاختيار على روايات متميزة، وهي: رواية سفر برلك ودروب القفر لسليمان القوابعة، ورواية مدارات الشرق لنبيل سليمان، ورواية دروز بلغراد لربيع جابر، ورواية راكب الريح ليحيى يخلف. ففي رواية سفر برلك: ظهرت صورة سياسة التجنيد الإجباري التي انتهجتها الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، والدول الكثيرة التي ظهرت بسبب تفتت الدولة العثمانية، أمَّا رواية مدارات الشرق فهي تتناول الفترة المفصلية والرئيسة في حياة سوريا، ورواية دروز بلغراد تتحدث عن الحرب الأهلية التي اندلعت مدة ثلاثة أسابيع في جبل لبنان بين الدروز والمسيحيين سنة 1860، وأسفرت عن هزيمة المسيحيين واستيلاء الدروز على جبل لبنان. أما رواية راكب الريح، فتناولت تفاصيل تاريخ يافا في القرن الثامن عشر، وأجواء الحياة فيها تحت الحكم العثماني.

الكلمات الدالة: الأتراك، الرواية الشامية، رواية سفر برلك، رواية مدارات الشرق، رواية دروز بلغراد، رواية راكب الريح.

المقدمة:

يرى بعض النقاد أن الرواية فن مثير للاهتمام والتحليل والنظر بعين التقصي، ويطلق بعض العلماء على هذا العصر الذي نعيشه عصر الرواية، وذلك أسوة بالعصور السابقة التي عرفت بالشعر، فقالوا بأن "الشعر ديوان العرب"، وهذا البحث الذي بين أيدينا يعكس صورة الأتراك في مرحلة من التاريخ العربي والإسلامي اتسمت بالظلم والاستبداد، وذلك في بعض الروايات الشامية.

لقد كان للعثمانيين النصيب الأكبر من الأدب شعرًا ونثرًا، وذلك لطول المدة التي استمر فيها حكم العثمانيين والتي تبلغ أكثر من أربعة قرون، وكما هو معلوم فإن الأدب هو المرآة التي تعكس واقع أية أمة أو أي شعب، ويتجلى ذلك في الإنتاجات الأدبية التي تصدر عن الأدباء والكتاب والشعراء في تلك الفترة، وقد انعكست صورة التركي واضحةً جلية في رواياتهم.

كانت المؤلفات العربية التي تحدثت عن الدولة العثمانية وحكمها في البلاد العربية منقسمة؛ فمنها ما يتناول الدولة العثمانية من منظور استعماري، فهي دولة محتلة، وقد استغلت الحكومات والأنظمة هذه الإنتاجات الأدبية بوصفها مصادر مناهجها في البلاد العربية، ككتاب لورنس: "أعمدة الحكمة السبعة" والتي أثرت في صورة التركي لدى شعوبها، وكتاب محمد كرد علي: "دمشق مدينة السحر والشعر" الذي وصف العثمانيين بالجهل والجشع، وبالتالي أدى إلى تأثر الأدب والفكر فيها، ولكن تناول بعض الافتراءات التي طالت الدولة العثمانية المؤرخ أحمد الجنابي "الاستعمار العثماني". ومن الكتاب الذين تناولوا الجهتين معا الروائي إبراهيم نصر الله. وهناك ثلاثة عوامل مشتركة كان لها الدور الرئيس في تشكيل صورة الأتراك لدى العرب، وذلك كما يرى الداقوقي في كتابه، وهذه العوامل هي: الأمن القومي العربي، والأتراك بين الإرث العثماني وأيدولوجية الدولة الحديثة، والمتغيرات الدولية في المنطقة ودور الإعلام الصهيوني [1].

أدخلت السياسة العثمانية في الدول العربية نظما ومفاهيم وأفكارا على أداة الحكم والإدارة في الدولة، ما مكّنها من إرساء قواعد تنظيم الدولة وأسسها على المبادئ الأوروبية والتجربة الأوروبية القائمة على الحرية والعدالة والمساواة، وطبقت التنظيمات

1 الداقوقي، إبراهيم. (2001). صورة الأتراك لدى العرب. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 33-87.

في ولايات الشام وفي فلسطين قبل غيرها من الولايات العربية وبسرعة وشمول أكثر[2]، واستطاعت الدولة العثمانية أن تنفذ جزءا كبيرا منها في هذه البلاد، وخلال فترة لا تزيد عن نصف قرن حققت الدولة العثمانية كثيراً من الإنجازات التنظيمية، وأدى بدوره إلى ظهور ازدواجية ثقافية في المجتمع الشامي، وإقرار المساواة بين الطوائف، فكان لذلك أسوأ الأثر في الولايات العربية ولا سيما في بلاد الشام حيث تكثر الأقليات المسيحية، ذلك أن الدولة العثمانية بالرغم من إعلانها مبدأ المساواة بين رعايا الدولة كافة، فإنها لم تستطع تطبيق هذا المبدأ تطبيقا كليا، فكان لهذا التمييز صدى قوي في الأوساط الطائفية[3]، وكانت النتيجة أن أخّل ذلك بالتوازن بين العناصر الطائفية (المسيحيين والمسلمين) حتى إن المؤرخ الفرنسي (ثومان Thomin) في كتابه (تاريخ بلاد الشام) يرى أن مذابح لبنان سنة 1860م ترجع في أسبابها غير المباشرة إلى التنظيمات العثمانية[4].

وإذا كانت حوادث 1860م بين الموارنة والدروز في جبل لبنان تعود في جذورها إلى النزاعات الإقطاعية في سبيل حكم الجبل، بدأت رسميا سنة 1841م، فإن انتقالها إلى دمشق يعود بالدرجة الأولى إلى أنفة مسلمي سورية من المساواة التي أقرتها التنظيمات العثمانية، التي قامت بالتقسيم الطائفي وتقوية النزاعات بدلا من القضاء على المشكلة من جذورها. وزاد الأمور سوءًا معركة المنافسة بين إنجلترا وفرنسا، الأمر الذي حفّز كلاً منهما على أن تتذرع بشتى العلل لتزيد من تدخلها في شؤون جبل لبنان، وتمثل هذا التدخل في تحزّب فرنسا للموارنة، وتحزّب إنجلترا للدروز؛ فعادت الاضطرابات مرة أخرى في سنة 1845م، وزاد في هذا التوتر صدور مرسوم الهمايوني 1856م، الذي اشتمل على اعتراف صريح بالمساواة الكاملة بين جميع الأديان والطوائف في الإمبراطورية العثمانية على غرار بلاد الشام، ومنح النصارى حقا قانونيا مطلقا في المساواة بالمسلمين، فتصاعد العداء من جديد في المنطقة، وعلى إثر ذلك قامت ثورة تحت تحريض من كهنتهم في لبنان الشمالي سنة 1858م، كان محركيها الأساسيين الفلاحون الموارنة [5]. وقد اتفقت الروايات المذكورة التي تناولها الباحث في تسليط الضوء على الدولة العثمانية بوصفها دولة ظلم

2 عادل، إسماعيل والخوري، أميل. (1961). السياسة الدولية في الشرق العربي، من سنة 1789 إلى سنة 1958، ج4، بيروت، دار النشر للسياسة والتاريخ، ص47.

3 الحصري، ساطع. (1960).. البلاد العربية والدولة العثمانية. ط2. بيروت، دار العلم للملايين، ص 26.

4 بعيو، غانية. (2009). التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجاً 1839– 1876. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائر، ص167.

5 المرجع السابق نفسه، ص175.

واستبداد وقسوة، تلك الصورة السلبية التي ظهرت بها الدولة العثمانية ساعدت على إبراز النزعات الطائفية وكانت انعكاساً للروايات التاريخية وما تناقلته الأجيال مشافهة بعضها عن بعض، ويجدر التنبيه هنا إلى أن هذه الروايات جميعها تناولت الدولة العثمانية في فترة حكمها، كما أن هذه الروايات لم تكن تقف موقفا معارضا للدولة العثمانية وحسب، بل عكست ـ كذلك ـ صور الظلم من دول وأطراف أخرى كانت موجودة، كتصوير النزاعات الطائفية الداخلية التي كانت موجودة داخل الدويلات الصغيرة التي كانت موجودة في تلك الفترة. ففي رواية "سفر برلك" ظهرت صورة سياسة التجنيد الإجباري التي انتهجتها الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، والدول الكثيرة التي ظهرت بسبب تفتت الدولة العثمانية، أمَّا رواية "مدارات الشرق" فقد تناولت الفترة المفصلية والرئيسة في حياة سوريا، وتناولت تاريخ الشعوب المغلوبة فحسب، وليس تاريخ الحكام ولا الطبقات الحاكمة، وهذه الرواية تعارض أدب الحكام الصغار الذي يلغي التاريخ أو يزوره. وتحاول أن ترمم الذاكرة، وأن تحيي سياقاتها بما يتوافر للروائي من قدرة على دمج الوثائقي بالتخيلي، في محاولة للإحاطة بكل سوريا الجديدة، وتغطيتها روائياً والكشف عن الآلام الدفينة والخفية لمجموعات عانت كثيراً من القسوة.

أما رواية "دروز بلغراد" فتتحدث عن الحرب الأهلية التي اندلعت لمدة ثلاثة أسابيع في جبل لبنان بين الدروز والمسيحيين سنة 1860، وأسفرت عن هزيمة المسيحيين واستيلاء الدروز على جبل لبنان، ففي هذه الرواية يعتمد ربيع جابر على حادثة تاريخية، وهي حادثة نفي مجموعة من الدروز إلى بلغراد، بعد مذابح 1860م التي جرت في جبل لبنان بين الدروز والمسيحيين، فاصدر الفرمان العثماني قراراً بترحيل 550 درزياً إلى سجون المملكة في بلاد البلغار عقاباً لهم على اعتدائهم على المسيحيين الموارنة، أما رواية "راكب الريح"، فتناولت تفاصيل تاريخ يافا في القرن الثامن عشر، وأجواء الحياة فيها تحت الحكم العثماني. فالرواية تعد نصا تفاعليا مفتوحا يتفاعل مع نصوص الحياة المختلفة مهما كانت طبيعتها، فهي مندرجة ضمن سياق حضاري متواصل متجدد، فحتى يستمر نموها وطرحها لا بد من تفاعلها مع الحضارات والثقافات والأمم على اختلافها، ومن أشكال هذا التفاعل استلهام

الرواية للشخصيات التاريخية، وللمكان وعرضها لطبيعة حياة الشخصيات، والتأثير المتبادل بين شخوص الرواية والمكان، وزمانهم وأحداثهم وأيامهم بلغة ذات حوارية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة[6].

ويتطرق الباحث في دراسته: "صورة الأتراك في الرواية الشامية" إلى كيفية عرض الروائي لهذه الصورة من خلال الخبر والحكاية. وسيعمل على تقريب تلك الصورة المطروحة بالرواية من ذهن المتلقي، كما يعنى البحث بتداخل الخيالي بالتاريخي في طرح المادة اعتماداً على استثمار فن النقد وتوابعه المعتمد على السردية بصورة كبيرة، إلى جانب الوقوف على عوالم الأتراك المكانية والزمانية بأنماطها وأحداثها في تلك الروايات.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة هذا البحث في كيفية عرض الروائي لصورة الأتراك في الرواية الشامية، وذلك من خلال استخدام أسلوبي الخبر والحكاية، وكيفية تقريب تلك الصورة المطروحة بالرواية من ذهن المتلقي، وكيفية تفاعلها مع الحضارات والثقافات والأمم على اختلافها، ومن خلال استلهام الرواية للشخصيات التاريخية، وعرضها لطبيعة حياة الشخصيات، وزمانهم وأحداثهم وأيامهم بلغة حوارية، وتداخل الخيالي بالتاريخي في طرح المادة اعتماداً على استثمار فن النقد وتوابعه المعتمد على السردية بصورة كبيرة، إلى جانب الوقوف على عوالم الأتراك المكانية والزمانية بأنماطها وأحداثها في تلك الروايات.

أسئلة البحث:

من خلال ما سبق يمكننا طرح الأسئلة التالية:

1- هل استطاعت الروايات –عينة الدراسة– عرض صورة الأتراك في بلاد الشام بطريقة واضحة وشفافة، وتصويرهم تصويراً بليغاً لتلك الحقبة التاريخية من الزمن؟
2- هل تستطيع تلك الروايات وحدها تصوير الحقبة التاريخية الممتدة لأكثر من أربعة قرون؟
3- ما الذي سبّب تباين النظرة إلى الدولة العثمانية بين المؤلفين العرب؟

6 السعافين، إبراهيم. (1995). الرواية في الأردن، ط1. عمان–الأردن، منشورات لجنة تاريخ الأردن، ص8.

أهمية البحث:

تكمن أهمية الدراسة بتفردها، فلم يتطرق باحث لدراسة صورة الأتراك في الرواية الشامية دراسة مستقّلة، من خلال قراءة نقدية متأنية، والوقوف على مدى توفيق الروائيين الشاميين في عرض صورة الأتراك. فقد أصبحت قضية عرض صور الأمم والشعوب السابقة والرواية التاريخية، قضية محورية، وبحاجة إلى بحث يكشف أصولها ومرجعياتها الفكرية والحضارية، ويحدد قيمتها الفنية. أما اختيار الروائي سليمان القوابعة، ونبيل سليمان وربيع جابر ويحيى يخلف دون غيرهم، فلأن مادتهم الروائية تشكل مادة خصبة للدراسة، فقد عرضوا صورة الأتراك بطريقة واضحة وجلية.

أهداف البحث:

تسعى هذه الدّراسة إلى الكشف عن ظاهرة عرض صورة الأتراك في الرواية الشامية، وأسباب استلهامها، ومدى أهمية استخدامها، ومدى تأثير توظيفها، وبيان قدرة الّرواة المختارين في عينة الدراسة على استحضار صورة الأتراك، ودورها في تخصيب نصوصهم ومحاولة الإمساك بالمُشترَك بينهم.

حدود البحث:

تتمثل حدود الدراسة في استقراء صورة الأتراك في أربع عينات من النصوص الروائية العربية بشكل عام، وهذه النصوص أنجزت في أزمنة مختلفة في الأعوام 2005 و2010 و2012 و2016، وهي تنتمي لأربعة أقطار عربية تحديداً في منطقة بلاد الشام وهي: (سوريا والأردن ولبنان وفلسطين).

المبحث الأول: الرواية الشامية:

الرواية لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور: "يقال روى فلان فلانا شعرا، إذا رواه له حتى حفظه للرواية عنه، وقال الجوهري: رويت الحديث والشعر فأنا راو في الماء والشعر[7].

7 ابن منظور، محمد بن مكرم بن على. (1993). لسان العرب، ط3. بيروت، دار صادر، ص287.

جاء في معجم الوسيط قولهم: "روى على البعير ريا: استسقى روى القوم عليهم ولهم: استسقى لهم الماء، روى العير، شد عليه بالرواء: أي شد عليه لئلا يسقط من ظهر البعير عند غلبة النوم، روى الحديث أو الشعر رواية أي حمله ونقله، فهو راو، وروى البعير الماء رواية حمله ونقله، ويقال روى عليه الكذب، أي كذب عليه وروى الحبل ريا: أي أنعم فتله، وروى الزرع أي سقاه، والراوي: راوي الحديث أو الشعر حامله ونقله، والرواية: القصة الطويلة"[8]. تعرف الرواية بأنها لون نثري طويل يعتمد على السرد بما فيه من وصف وحوار وصراع وأحداث وأفعال ومشاهدات بين الشخصيات والأحداث، تقدم على شكل قصة متكاملة متسلسلة [9]، كما أنها أكبر الأجناس القصصية من حيث الحجم، وتعدد الشخصيات، وتنوع الأحداث، وهذا ما يميزها عن بقية الأجناس النثرية الأخرى، يعالج فيها الكاتب موقفه من الكون والإنسان والحياة، وذلك من خلال معالجته لمواقف الشخصيات، وتتميز بالتشويق في الأمور والمواضيع والقضايا المختلفة التي تطرحها، وقد ظهرت في أوروبا بوصفها جنساً أدبياً مؤثراً في القرن الثامن عشر [10]. ومن أنواعها السياسية، والتاريخية، والنفسية [11]، والتعليمية، والاجتماعية، والفلسفية [12]. وظهرت الرواية بمعناها الفني في أدبنا العربي في أوائل القرن العشرين. وأول رواية كانت رواية زينب لمحمد حسين هيكل باشا التي صدرت سنة 1913م.

ويعد فن الرواية في بلاد الشام فناً حديثاً، ويعود هذا لطبيعة المنطقة، فلم تساعد الظروف الاجتماعية والسياسية والبيئية في ظهور الرواية في وقت مبكر، لأن الفن الروائي يحتاج إلى قاعدة متينة لينمو ويتطور، مثل الاستقرار السكاني ووجود تحول صناعي والمطابع، وجمهور مثقف قادر على القراءة وهذا ما لم يتوافر في بلاد الشام بالرغم من وجود حالات فردية ولكنّها لا تشكل ظاهرة [13]، فلا تكاد الرواية في الأردن مثلا "تتميز بخصوصية في الذوق أو في الاتجاه عن غيرها من الأقطار العربية الأخرى، فهي جزء من مسيرة الرواية العربية الحديثة"[14]. بنيت (الرواية الشامية) على المادة التاريخية، فالرواية التاريخية هي المدخل المؤسس للفن الروائي الذي عرف في بلاد الشام. ومثلما مرت الرواية العالمية بالفترة التاريخية لتتأسس، فإن الرواية في

8 إبراهيم، مصطفى والزيات، أحمد وعبد القادر، حامد والنجار، محمد. (1989). المعجم الوسيط، ج1. القاهرة، دار الدعوة، ص384.

9 المصري، محمد عبد الغني والبرازي، محمد الباكرى. (2002). تحليل النص الأدبي بين النظرية والتطبيق. عمان، مؤسسة الورق للنشر والتوزيع، ص171.

10 فتحي، إبراهيم. (1988). معجم المصطلحات الأدبية. تونس، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، ص178.

11 يعقوب، إميل وبركة، بسام. (1987). قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، ط1. بيروت، دار الملايين، ص70.

12 مريدن، عزيزة. (1971). القصة والرواية. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص20.

13 الشوابكة، مهند. (2010). الرواية الأردنية (1995–2000م)، أطروحة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان–الأردن، ص4.

14 السعافين، إبراهيم. (1995). الرواية في الأردن، ط1. عمان، منشورات لجنة تاريخ الأردن، ص11.

بلاد الشام مرت بالفترة نفسها. كما أن هناك تشابهاً من حيث شيوع الرواية التي يغلب عليها طابع المكان الريفي والبدوي، تلك التي ترصد الحياة الريفية والبدوية في لحظة التحديث والثورة، كذلك فعلت الرواية الشامية عبر روائيين عديدين منهم: هاني الراهب، ونبيل سليمان، وحيدر حيدر، وعيسى الناعوري، وعيسى الحاج، وسليمان قوابعة. فقد ظهرت رواياتهم بطابع تاريخي من وجهة نظر الطبقة الاجتماعية المسيطرة والتي هي من أصول ريفية أو بدوية [15]، ويفرد الراوي للريف مساحة واسعة في روايته وما يميز روايات تلك الفترة خطابها الإيديولوجي القومي الظاهر وبلاغتها اللغوية [16].

فقد جاء الإنتاج الروائي في مرحلة البدايات كما سبق أو كما سماها النقاد مرحلة (الريادة والتكوين) متواضعا يعتمد أسلوب السيرة الذاتية والمذكرات، ويغلب عليه الطابع التاريخي والوعظ والإرشاد والتعليم والتسلية، واعتمدت الأسلوب التقريري الإنشائي والطرح المباشر، و" التركيز على الجوانب العاطفية والإنسانية بشيء من المبالغة والحدة"[17].

وبعد، فقد قامت الرواية بعملية تطوير لنفسها لتتأقلم مع دور المدينة الحديثة. إذن، المدينة الحديثة تقابلها وتؤرخ لها الرواية الحديثة، وهذا بالضبط ما حدث أيضاً للرواية الشامية؛ فانطلقت ترسم المدينة، وتتعمق في الإنسان ساكن المدينة. ولم يعد التاريخ يؤخذ بصفته حركة خطية بل أصبح يؤخذ بصفته شريحة وأرضية. وراح الاهتمام ينصب على الإنسان وعلاقاته في أثناء تلك الشريحة الزمنية. وبدأت تظهر الرواية التي تنظر إلى العالم من وجهة نظر إنساننا المعاصر، وراح الروائي يرسم خريطة المدينة ويفصّل في علاقاتها، ويقدم فنونها ولهجاتها المختلفة [18]. في هذه الفترة ترك بعض الأسماء من بلاد الشام بصمة واضحة، وكان لهم مشاركة رئيسة في رسم المشهد الروائي الشامي الحديث أمثال: خيري الذهبي، وفواز حداد، وإبراهيم الخليل، وجمال ناجي، وطاهر العدوان، وغيرهم [19]. بعد ذلك وصل الجيل الأحدث الذي راح يشارك في مهمة أولئك الروائيين السابقين، وأضاف عليها مهمات أخرى أكثر تخصصاً، ولكن ما تزال في بداية الطريق، مثل كتابة رواية السيرة والرواية النفسية أو الفلسفية والرواية العاطفية والبوليسية. إن هذا الجيل أكثر تحرراً من ضغط الإيديولوجيا والتاريخ وذاكرته مفعمة بالثقافة والإعلام الكونيين. كما أن حنينه

15 سيريس، ناهد. (د. ت). الرواية السورية، مجلة الأدب، العدد 25، ص88.

16 إبراهيم، خليل. (2014). الرواية الأردنية في مئة عام، مجلة قاب قوسين، الأردن، العدد 24.

17 الكركي، خالد (1986). الرواية في الأردن (مقدمة). عمان–الأردن، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، ص15.

18 سيريس، ناهد، الرواية السورية، المرجع السابق، ص92.

19 إبراهيم، خليل، الرواية الأردنية في مئة عام، المرجع السابق، ص59.

يختلف جذرياً عن حنين الروائيين السابقين إلى القرية والحاكورة والحارة الهادئة والبيوت ذات العليات، وذكرى الأحداث الوطنية والقومية الكبيرين[20]. هذا الجيل سوف ينظر إلى التاريخ والعالم والعلاقات الإنسانية بشكل مختلف، كما أنه سيؤرخ المدينة المعاصرة بشكل مختلف أيضاً، بشكل يتلاءم مع حداثة الرؤية والتعبير [21].

المبحث الثاني: روايات شامية مختارة:

1 . رواية سفر برلك ودروب القفر لسليمان القوابعة: [22]

أ . التعريف بالرواية:

جاءت رواية **سفر برلك ودروب القفر** في 200 صفحة من القطع المتوسط، ويمكن وصفها بالرواية التاريخية، وجاءت في سلسلة مشروع التفرغ الإبداعي لوزارة الثقافة عام 2010م، وتعد هذه الرواية إضافة جديدة للروائي سليمان القوابعة بشكل خاص وللرواية الأردنية بشكل عام بحسب ما قوّمها نقاد وأدباء أردنيون وعرب.

العنوان: كلمة "سفر برلك" كلمة تركية تعني "الحرب الأولى" أي الحرب العالمية الأولى أيام ما بعد السلطان عبد الحميد الذي غيبه الاتحاديون عن خلافته، وأشغلوا أنفسهم بالحرب العالمية الأولى في حين كانت الدولة العثمانية في وضع متردٍ وفي حالات من الوهن والتراجع. الفكرة الرئيسة: تتعرض هذه الرواية إلى أولئك الذين خاضوا حربا لا تخصهم، وجنوا ثمرة ذلك بالفقر والتخلف والجهل. والرواية مشاغلة بين الناس والأمكنة وظروف التاريخ الطارئة (بدايات الحرب العالمية الأولى) حين كان للاتحاديين دورهم المسيطر مع نهاية الدولة العثمانية فواجهوا الرعية بمتطلبات الحرب التي أرادوها وفي فترة من البؤس والتردي.

20 سيريس، ناهد، الرواية السورية، المرجع السابق، ص95.

21 إبراهيم، خليل، الرواية الأردنية في مئة عام، المرجع السابق، ص62.

22 هو سليمان حماد عبد الله القوابعة ولد في الأردن، الطفيلة عام 1943م، تخرج من الجامعة الأردنية عام 1969م، وحصل على دبلوم عال في التربية في جامعة مؤتة عام 1989م. بدأ سليمان القوابعة مسيرته الروائية مبكراً في عام 1969م بروايته (جرح على الرمال) التي عدت مع الروايات المبكرة في مسيرة الرواية الأردنية، وأتبعها بعد ما يقارب عشر سنوات برواية ثانية (شجرة الأرغان) المستوحى من البيئة المغربية، ثم غاب اسم القوابعة طوال الثمانينات الذي ازدهرت فيه الرواية الأردنية وتطورت وظهر فيها روائيون أكثر حداثة وتميزاً، وفي عام 1994م عاد بروايته (حوض الموت)، ثم أتبعها برواية جديدة عام 1998م (الرقص على ذرى توبقال) وهي قريبة من روايته السابقة، ثم نشر روايته (حلم المسافات البعيدة . عبيد الرب) 2007م، أما أخر رواياته فهي (سفر برلك ودروب القفر) 2010م.

المكان: عرضت الرواية للأماكن التي تمتد بين المدينة المنورة ووادي العقيق جنوبا وشرقي الأردن ووسطه، ثم تتعدى بر الشام لتصل إلى الحدود التركية.

والزمان: فترة عصيبة من الزمن حيث بدايات الحرب العالمية الأولى.

الشخوص: هناك مجموعة من الشخوص المؤثرة وهي:

"أطياف مختلفة من عسكر وقطاع طرق وصعاليك وغزاة وفلاحين وأصحاب قطعان يرتحلون حسب المواسم والمناسبات الطارئة"

بطل الرواية: (علي بن عبد الله) الذي كان يوصف (بالرضي) أصله من المدينة المنورة، لكنه هارب من العسكر العثماني بعد تهجير أهل المدينة منها، يعاني الكثير حتى يجد والده وأخته (ساجدة).

اللغة: سرد القوابعة روايته بين الفصيحة واللهجة البدوية المحكية، وقد سيطرت مفردات البيئة البدوية.

ب . صورة الأتراك في رواية "سفر برلك ودروب القفر":

تتعرض رواية "سفر برلك ودروب القفر" لسليمان القوابعة إلى أحداث تاريخية مركزها "السفر برلك" هذا الاسم الذي اختاره القوابعة للتعبير عن سياسة التجنيد الإجباري التي انتهجتها الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، ودخولها حرباً ليست حربها، وكيف بدأت الثورة العربية الكبرى، والتي وجد آلاف من الشباب العرب أنفسهم فيها يحاربون ـ بشراسة ـ الظلم والقهر ، فقد تمت مطاردة الفلاحين وأهل القطعان وحتى الصبيان الذين اقتربوا من سن الرشد، ما سبب إهمال الزراعة وعناصر الحياة الضرورية، وانتشر الفقر والجهل والبؤس في المشرق العربي كله. وتبع ذلك ظروف المعاناة والضياع التي أصابت الرعية عامة. لذا حاول الاتحاديون الذين نالوا الحكم تجنيد رجال القبائل في بلاد الشام وغيرها من أجل تلك الحرب التي لا تعنيهم، وأعلنوا النفير للحرب، ومارس العسكر سطوتهم بمطاردة رجال القبائل، ليتم إرسالهم إلى ساحة الحرب في أوروبا، وعرف عند الناس أن من يذهب لساحات تلك الحرب نادرا ما يعود وإن عاد فسيكون ممسوساً أو مخبولاً، ولا يجد أهله، وإن وجدهم فسيجد أثار ظلم العسكر بأشكاله المتنوعة عليهم. وتتوالى صورة ظلم الأتراك في الرواية وتظهر بدايتها عندما أجبر العثمانيون أهلَ المدينة المنورة

على الهجرة وتركهم لديارهم وأرضهم عبر قطار الحجاز، ما أدى إلى تفرقة الكيان الكلي لمجتمع أهل المدينة الذين وجدوا أنفسهم منقادين في "دروب القفر" ، وهو الجزء الثاني من عنوان هذه الرواية؛ حيث وقائع حياة فيها الظلم والقسوة والعذاب بأشكاله، فغابت أخبار الأهل، وتقطعت أواصر الترابط بين العوائل والأسر، إلى جانب ضياع جزء غير قليل من المخطوطات الفكرية والتاريخية والحضارية لسكان أهل المدينة أو إتلافها، لقد ظلمت الدولة ورعيتها اجتماعيا واقتصاديا وفكريا.

تعرض الرواية رحلة هذا البطل الذي عكس القوابعة من خلاله صورة الحكم التركي في فترة عصيبة مرت على البلدان العربية، التي تدور أحداثها في صحراء قاحلة بطلها (علي بن عبد الله الرضي) يصارع في صحرائه أبان رحلة العرب نحو الثورة العربية الكبرى، والخلاص من الظلم (العصملي) الذي طال وتعدى كل الحدود، فتبدأ الرواية بالبطل الهارب من بطش العساكر من المدينة المنورة حين داهموها عسكر العصملي واقتادوا رجالها، وحتى بعض نسائها ومنهم شقيقته (ساجدة) ووالده، وكان العسكر يزرعون الموت حيثما حلوا ويقتادون الرجال إلى الحرب البعيدة في أوروبا، التي تدور رحاها في أرض جليدية لم يرها صحراوي بدوي من قبل؛ لتظل ديارهم أطلالاً خربة فيها من قطاع الطرق والسلب والنهب ما فيها. ولتظل حكاية البطل في الرواية هي نص الرواية الرئيس منذ صفحتها الأولى وحتى نهايتها المفتوحة على احتمالات متعددة، تركها الكاتب للمتلقي، فقد ظل البطل في صحرائه يحاور نفسه متأبطا مذكرات والده الذي بقيت له ملجأ يعود إليه كلما شعر بالوحدة والظلم والقهر، فهي ملاذه الوحيد في هذه الصحراء التي احتضنته مثل أمه. أما والده فقد فقده ذات يوم ولم يعرف عنه شيئاً، فلجأ إلى الصحراء التي بدت أرحم بكثير من عساكر (العصملي) حين كانوا يغزون القبائل بحثا عن الرجال لتجنيدهم في الحرب. فكانت البيئةَ الصحراوية هي الحاضنة لغربة "علي بن عبد الله"، وفي أجوائها حَطّ رحاله عند قبيلة الشيخ مصلح، وغدا في عين الشيخ بمقام ابنه، كما عشقته ابنة الشيخ صفية وتكلل ذلك بزواجهما، من هنا ومن قصة هذا الشاب تتكشف ملامح صورة الترك التي أراد القوابعة عرضها وبثها في ثنايا روايته.

ونلحظ أن فكرة الإحساس بالاغتراب والقلق تسيطر على البطل علي على مدار صفحات الرواية. يستشعر القارئ ذلك في مواقفه وتأملاته للأحداث من حوله، وترهق تفكيره مظالم الحياة وضغوطها من جانبين:

أولها: عام، يمثل مأساة الأمة العربية، وهنا تتجلى صورة الدولة التركية العثمانية في ظهورها الظالم للأمة، فبات كل ما فيها مباحاً لعسكر الدولة العثمانية.

وثانيها: خاص، يمثل قضيته، فهو هارب من التجنيد، وغياب والده في الأسر، وبعده عن أمه وإخوته، ولا يعرف مصير أخته الوحيدة "ساجدة"، وقد أتعبه البحث عنها والسؤال عما آلت إليه أخبارها، وذلك على مدار صفحات الرواية.

فصورة الأتراك واضحة كما عرضها التاريخ من قبل حيث الظلم بكل أنواعه والتجبر على الأمة العربية عامة، بالرغم من ظهور بذرة التخلص والنجاة بطوق الثورة العربية الكبرى، والبحث عن خلاص الوطن والروح المعنوية غير القابلة للانكسار في ثنايا الرواية.

وتنتهي الرواية بمشاهد ختامية يعرض بها القوابعة ظلم الأتراك وجيشهم، وظل علي الرضي بن عبد الله يواصل رحلته في البحث عن والده الغائب أسرا في معسكرات الجيش العصملي، ومشهد ثانٍ فيه من الظلم ما فيه حين تعود شقيقته ساجدة من الأسر وقد حملت سفاحا من عسكر لا يرحمون، ثم تلفظ أنفاسها بين يدي الأم بينما علي لا يزال تائهاً فاراً في الصحراء.

"أين أنت يا عبد الله الشاهد.

أشجار طلح وغضا ونخيل ودروب صحراء الرمل تتوالى وأسراب طيور، وراحلتي يواجهها ظمأ القفار وقلة المؤونة، فالمسار يبدو بعيدا"[23]. بهذه الخاتمة المفتوحة على مدى بعيد وتأويلات عديدة يختم قوابعة روايته، وهذا نموذج المظلوم فكم عائلة مثل عائلة علي وساجدة، قد ذهبت ضحية؟ هذه هي الصورة الكلية التي تطرق لها القوابعة بإتقان محترف، بريشته رسمها للتاريخ لتظل أكبر شاهد على ظلمهم.

يلاحظ أن الرواية قامت على ركيزتين أساسيتين هما:

23 القوابعة، سليمان. (2010). رواية سفر برلك، ودروب القفر. عمان–الأردن، وزارة الثقافة، مطبعة السفير.

أولاً: الأحداث التاريخية الموثقة، المتمثلة بالعودة من خلال "مفكرة الأب" التي ظلت لصيقة بالابن علي.

ثانياً: حياة الشخصية الرئيسة (علي بن عبد الله) والثانوية المتخيلة، للتعبير عن مقدار الألم والقهر الذي تعرضت له شخصيات حقيقية عاشت محنة "السفر برلك". وهما يشكلان معاً البنية الكلية للرواية، فعرض الماضي بتفاصيله التاريخية الحقيقية والمتخيلة، لفهم الحاضر والتعامل معه.

2. رواية مدارات الشرق لنبيل سليمان [24]

أ . التعريف بالرواية:

رواية سورية ألفها الكاتب السوري نبيل سليمان، وقع اختيارها من ضمن أفضل مئة رواية عربية، منشورة للمرة الأولى عام 2005م. فهي من أعمال الكاتب الأخيرة، صدرت عن وزارة الثقافة في أربعة أجزاء من القطع الكبير هي: (بنات نعش والأشرعة والتيجان والشقائق).

موضوعها: محاولة لرصد العلاقات المجتمعية في الحياة السورية، ومكنوناتها، وتفاصيلها. ويمكن أن يطلق عليها رواية تاريخية؛ فهي تبحث تطور هذه العلاقات خلال فترة تاريخية معينة تتصف بأنها الأكثر حساسية وتأثيراً، وقد ضمنها أفكاراً تعالج التعسف والقهر الإنساني.

الأشرعة: وفي هذه الرواية الرباعية وخاصة الجزء المعنون (بالأشرعة) يعيدنا نبيل سليمان إلى البدايات الحقيقية لسقوط الإمبراطوريات، وتكون الدول وتشكل القوى، فهي تبحث في مرحلة مفصلية من حياة سورية حيث الحرب العالمية الأولى وتفتت

24 كاتب سوري ولد عام 1945 في مدينة صافيتا، تخرج من جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، عام 1967 م. حياته العملية: عمل في التدريس بين 1963–1979، وأسس دار الحوار للنشر والتوزيع عام 1982 في اللاذقية، وهو عضو جمعية القصة والرواية. تفرغ للكتابة منذ عام 1989. تُرجمت بعض أعماله إلى الروسية والإسبانية والإنجليزية. كان سليمان قد بدأ الكتابة روائيّاً قبل أن يتّجه إلى النّقد، أما رواياته فهي: الطوفان، والسجن، وثلج الصيف، وجرماتي، والمسلة، ومدارات الشرق، وأطياف العرش، ومجاز العشق، وفي غيابها، ودلعون، وحجر السرائر ، ومدائن الأرجوان، جداريات الشام .نموذجا. أما دراساته فهي: الأدب والأيدلوجيا في سورية، والنسوية في الكتاب المدرسي، والنقد الأدبي في سورية، ومعارك ثقافية في سورية، والماركسية والتراث العربي الإسلامي، والرواية السورية، ومساهمة في نقد النقد الأدبي، ووعي الذات والعالم، وهزائم مبكرة، وأسئلة الواقعية والالتزام، وقيس يبكي (قصة)، وفي الإبداع والنقد، وفتنة السرد والنقد، وحوارات وشهادات، والثقافة بين الظلام والسلام، وسيرة القارئ، وبمثابة البيان الروائي.

الدولة العثمانية، من خلال خمس شخصيات رئيسة تعود من حرب اللاعودة، إن صح التعبير، على حد ما عرف عنها (سفر برلك) يأملون في إعادة بناء الحضارة والحياة في ظل الاستعمار.

المكان: سوريا.

الزمن: (السفر برلك) الحرب العالمية الأولى وما بعدها.

اللغة: امتازت الرواية بالجمال اللغوي التي توازت مع غنى المحتوى، فقد استطاع نبيل سليمان أن يدمج الوثائقي بالتخيلي، وأن يستشف العام من تفاصيل الوقائع والأحداث ليدخل بذلك مرحلة جديدة ضمن هاجسه الطموح بتطوير فن الرواية، ولعل مدارات الشرق تتابع طريق الرواية العربية من حيث إنها كتابة للتاريخ.

شخصيات مدارات الشرق (الأشرعة): راغب الناصح، وياسين الحلو، وإسماعيل معلا، وعزيز اللباد، وفياض العقدة.

ب . صورة الأتراك في رواية "مدارات الشرق / الأشرعة":

في مدارات الشرق يبدأ نبيل سليمان روايته (الأشرعة) التي تعد الفاتحة والمبشرة لموسوعته الكبيرة والعظيمة التي بها تقدمت الرواية في بلاد الشام وأخذت مكانا مرموقا. مدارات الشرق تتحدث عن الفترة المفصلية والرئيسة في حياة سوريا، وعن الحرب العالمية الأولى (سفر برلك) التي كانت المفتتح لظهور الدويلات الجديدة والانقسامات الحديثة الوليدة، والدول الكثيرة التي ظهرت بسبب تفتت الدولة العثمانية، فهي محاولة للإحاطة بالوطن الجديد سوريا من كل مفاصله، وعبر تشكيلاته: المدنية، والبدوية، والفلاحية، والطوائف الصغيرة فيه، فتعرض التفاصيل التي ظهرت في هذه الدويلات الحديثة وقبائلها من ريف الشام ودمشق وبواديها مرورا بالفرات والجزيرة والجولان، وظهور الطائفة العلوية، والطائفية... فيبدأ نبيل روايته بالحديث عن العائدين من (السفر برلك) الحرب العالمية الأولى إلى دمشق وهم: ياسين الحلو، وراغب الناصح، وإسماعيل معلا، وفياض العقدة، وعزيز اللباد، فهي تصور ظلم الأتراك للعرب في حكمهم بعد إجبارهم على دخول الحرب العالمية.

هذا العمل الروائي كان الهدف منه محاولة للإلمام بكل سوريا الجديدة، وتغطيتها روائياً في رباعيته للكشف عن الآلام الدفينة والخفية لمجموعات عانت كثيراً من القسوة والظلم التركي، من خلال الشخصيات السابقة، ومن خلال استعراض النظام العثماني الذي خلف وراءه القبح والجهل والحرمان والفقر والتخلف والتقسيم. فكشف لنا عن مكنونات فترة مهمة من تاريخ المنطقة حفلت بالأحداث والمشاريع والأحلام والخيبات أيضا، وهي بذلك حفلت بالشخصيات والأحداث الكثيرة، وسجلت علاقاتها المجتمعية في تطورها خلال تلك الفترة.

ويعكس نبيل في هذه الرواية صورة الأتراك المستعمرين، ويصور الأتراك تصويراً سلبياً. فهم قساة وغلاظ وظالمون، وتحفل الرواية بنماذج بشرية فردية، وتحضر هنا النماذج في الرواية حضوراً لافتاً حتى إنَّها لتظل في ذاكرة القارئ لتميز بعضها بما يثير الدهشة، وقد يكون لبعض هذه الشخصيات الروائية نصيب من الواقع، وبعضها من نسج الخيال، وقعت ضحية حكم الأتراك.

ويعكس نبيل في نصه الروائي نظرة تعامل الأتراك مع العرب وطريقتها يوم كانت الدولة التركية قوية إلى حد ما وتحكم بالسياط والعصا، وتعطينا الرواية تصوراً عن حياة الأتراك والشعوب التي حكموها. وتعاطفت الرواية مع الشخصيات التي عانت ما عانت من حكم الأتراك، من جراء خذلان أصحاب الزعامات وأصحاب المناصب والسلطة لها، وهي تبحث عن ممكنات عيشها الرغيد الزهيد بعد الحرب العالمية (سفر برلك) على حساب الطبقات البسيطة والمتوسطة ممثلة بطبقة العاملين والفلاحين الكادحة، في نمط خفي من الصّراع الطّبقي المهيمن على تلك الحياة الظالمة.

وصيغت الرواية بمقطوعات حوارية ذات طابع انفعالي وتفسيري يجذب القارئ؛ لتؤسس عبرها لغة روائية خاصة يندمج فيها المدني بالبدوي الخشن والشرقي بالغربي، مع ما فيها من صدامات ومشاحنات وتضاد، وتنافر نتيجة الظلم والقبع والقهر السائد إبان الحكم التركي الظالم، فيظهر نبيل الإذلال المتعمد والمهين لكرامة الإنسان، واستحقاقات وجوده الطبيعي في الحياة عبر كشف أساليب تعذيبية وحشية كان يمتاز بها جيش الأتراك.

فالرواية تعرض في جزئها الأول عقداً من الزمن من 1918 إلى 1928 تقريباً من حياة سورية من رحيل الأتراك والاحتلال الفرنسي إلى ما بعد الانتفاضات الفلاحية وبدء انتظام الحياة في سورية في سياق الاحتلال. وتستحضر مع هذا العقد مصائر

مجموعات بشرية بوصفها مصائر وطن يتحول في خضم صراعات أثنية ودينية وطبقية وطائفية، فتظهر جلية في أفكار العصر وأخلاقياته وتركيباته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

تبدأ "الأشرعة" عام ،1920 وقد تمكن الاحتلال الفرنسي من الشام، تابع الرواية مسار خمسة من عساكر القشلة الحميدية بدمشق، إبان انهيار المقام التركي العثماني ودخول مرحلة مختلفة هي مسار الشام كلها: ياسين الحلو من الزنبقلي، وإسماعيل معلا أبو عاطف من كفر لالا، وفياض العقدة من ريف حمص، عزيز اللباد من قبية، وراغب الناصح من الجولان.

ومن هذه الشخصيات؛ يكون الحديث عن عشرات الشخصيات الأخرى الرئيسة والفرعية وعن باشوات وأغوات وإقطاعيين وتجار حروب وعمال وفلاحين وحرفيين وصحفيين وضباط وقادة ونساء وأطفال يموتون أو يحيون في طاحونة مخاض مجتمع يتبدل. وبهذا الإطار، تصبح الشخصيات الخمس مفاتيح لهذا المجتمع الموارب بحركته وتغيراته. إذن هي رواية عن تبدل مجتمع، لا لمعرفة كيف تبدل خلال عقد من التاريخ، ولكن لمعرفة كيف أصبحنا الآن في مدارات الشرق المسدودة، وفي حلم التغيير الذي ما يزال حلماً، فهي تختلف عن الرواية السابقة من حيث الطرح، لكن الظلم والقهر والمشروع واحد.

ترصد الرواية في فصولها الأولى من "الأشرعة" تشكل المجتمع الشامل إثر رحيل الأتراك وقيام الحكومة العربية الهاشمية بدمشق. ولعله تتبع شبكة علاقات (الباشا شكيم)، ممثلاً للطبقة الحاكمة الجديدة ورمزها يكشف عن صياغة مجتمع جديد في طور متغيرات هائلة [25].

ولكن هذا المجتمع الجديد ما يزال مثقلا بالإرث التركي الظالم الذي ترك الأمة في حالة تخلف وضياع أدى بها إلى أن تكون مرتعاً لاستعمار جديد.

25 أبو هيف، عبد الله. (2002). رؤى التاريخ في الرواية العربية، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العدد 372، ص15.

3 . رواية دروز بلغراد لربيع جابر[26]

أ . التعريف بالرواية:

نوع الرواية: هي رواية تاريخية لربيع جابر. حازت على جائزة البوكر العربية سنة 2012. وهي الرواية السادسة عشرة في مدونة الروائي اللبناني ربيع جابر.

العنوان: دروز بلغراد، الجماعة والفرد، الدروز والمسيحي.

موضوعها: الحرب اللبنانية الطائفية عام 1860م منطلقاً.

تتناول الرواية وضع لبنان بعد مجازر 1860 في جبل لبنان، وهي حادثة واقعية جرى فيها نفي 550 درزياً إلى بلغراد وطرابلس الغرب في القرن التاسع عشر، بعد المواجهات بين الدروز والمسيحيين.

يعرض القصة السابقة من خلال قصة حنا بائع البيض المسيحي.

اللغة: يستخدم ربيع جابر لغة بسيطة سهلة عميقة إن صح التعبير، لكنها بعيدة عن التصويرية والتزيين، مباشرة إلى حد ما.

الأسلوب البنائي: يستخدم جابر مهارته الإخراجية السينمائية، فقد عمل على قلب مشاهد الرواية ليجعل منها أشبه بفيلم سينمائي، وعليه لا بد للقارئ أو المتلقي من استخدام حواسه الخمس ومخيلته لتكملة النص التصوري والتحليل في بعض مشاهد الرواية، فبعض مشاهدها تنتهي بجمل مفتوحة يمكن للمتلقي تخيل ما بعدها.

26 هو أديب وكاتب وصحفي لبناني، ولد في بيروت عام 1972م. يحمل شهادة في الفيزياء من الجامعة الأمريكية في بيروت. يعمل محرراً للملحق الفكري والأدبي الأسبوعي (آفاق) في جريدة (الحياة) الصادرة في لندن. اشتهر بالأعمال الروائية، وأول نتاجه كان روايته الأولى (سيد العتمة) التي نشرها سنة 1992 وهو في العشرين من عمره، فازت بجائزة الناقد للرواية ذلك العام. وفي عام 2010 رشح جابر لنيل الجائزة العالمية للرواية العربية على كتابه (أمريكا) الذي اقتبس منه فيلم بذات الاسم. نال الجائزة العالمية للرواية العربية لدورة عام 2012 عن روايته (دروز بلغراد) الصادرة عن المركز الثقافي العربي في الدار البيضاء ودار الآداب في بيروت في 239 صفحة، وأعلن ذلك في أبو ظبي يوم 27 مارس 2012م. من مؤلفاته: سيد العتمة (1992)، وشيء أسود (1995)، والبيت الأخير (1996)، والاعترافات (2008)، وبيروت مدينة تحت الأرض (2009)، وأمريكا (2010)، ودروز بلغراد (2011).

المكان والزمان: المكان الأم بيروت، إلا أن جابر تجول في مدن البلقان وصولاً إلى دمشق، تدور أحداث الرواية في السنوات التي تلت ما يعرف بحرب الجبل في لبنان (1860).

الشخصيات: بطل الرواية هو بائع بيض بسيط، اسمه حنا يعقوب كان في المكان الخطأ في الزمان الخطأ، فكان عليه أن يدفع ثمنا لذلك سنوات من عمره قضاها في سجون البلقان.

ومجموعة من الرجال الدروز ينقلون بطريق البحر من لبنان إلى البلقان لقضاء عقوبة السجن في قلعة بلغراد؛ بسبب اتهامهم بالتورط في قتل مسيحيين في الحرب. وحنا يعقوب نفسه ليس درزيا، لكنه كان يبيع البيض المسلوق بقرب الميناء.

ب . صورة الأتراك في رواية دروز بلغراد:

تظهر صورة الأتراك والحكم العثماني الظالم في هذه الرواية من خلال قصة حنا يعقوب، وهو الرجل المسيحي من لبنان / بيروت، كان يعمل بائعاً للبيض، وتظهر الصورة الأولى للحكم التركي حينما كان حنا يتواجد صدفةً بالمكان والزمان غير الموفقين، على أرصفة المرفأ عندما تم اعتقال مجموعة من المتقاتلين الدروز، والسبب تلك للحرب الأهلية التي اندلعت في جبل لبنان بين الدروز والموارنة سنة 1860، وبعد معارك ومذابح دامت ثلاثة أسابيع هزم الدروز المسيحيين واستولوا على جبل لبنان. ثم انتقلت عدوى القتل على الألسنة إلى مدينة دمشق، فأغار المسلمون على حي النصارى وأحرقوه، وجرت الدماء في أقنية الدروب وسط الدروب [27] "فجاء الفرمان العثماني بقرار ترحيل 550 درزياً إلى سجون المملكة في بلاد البلغار، كردة فعل على اعتدائهم على المسيحيين الموارنة. وأصدر الوالي عفوا عن (سليمان) أحد الإخوة الخمسة من عائلة عز الدين بناءً على رشوة من والدهم، ما يضطر الجنود إلى إيجاد بديل للأخ الناجي من النفي. ويكون حنا يعقوب بائع البيض المسيحي، هو الضحية، فيتحول إلى سليمان غفار عز الدين الدرزي على مدى اثنتي عشرة سنة.

27 جابر، ربيع. (2015). دروز بلغراد، حكاية حنا يعقوب، ط5. بيروت، دار الآداب، ص35.

والصورة الثانية للظلم التركي تظهر حينما أُخِذ حنا يعقوب معهم، وتم نفيه واقتياده عن طريق البحر إلى قلعة بلغراد عند تخوم الإمبراطورية العثمانية، بدلا من شخص آخر أطلق سراحه بعدما دفع والده رشوة للضابط العثماني. وبالرغم من صراخ حنا وعويله بأعلى صوته بأنه ليس درزيا بل مسيحياً، فلم يجدِ نفعا حتى حين انتبه إليه القنصل الفرنسي الذي كان متواجدا في المكان، فضلله المترجم وأوهمه بأن حنا درزي يصرخ متباهيا بأنه قتل مسيحيا. "بائع البيض أراد أن يستدير ويهرب إلى البيت. ولكن دب الرعب في أوصاله برؤية الجبليين هكذا مربوطين بحبل كالحيوانات وراكعين على حافة البحر. حاول أن يحرك ساقيه لكن الذعر شلّ أطرافه. التفتت صوبه رؤوس، ثم رأى جنودا يقتربون منه، ورأى ضابطا يتقي بكف مرفوعة أشعة الشمس يبتسم له ويسأل عن اسمه"[28]. وتبقى الرواية تدور في ذلك الفضاء حيث معاناة حنا وبقية السجناء على امتداد 12 سنة من السجن في بلغراد وغيرها من بلاد البلقان. وفي السجن تتوسع دائرة الظلم والمعاناة بأشكالها كافة، فمنهم من مات في قلعة بلغراد، وآخرون ماتوا في الصرب والجبل الأسود وبريشتنيا، بسبب الطبيعة القاسية والظروف الصعبة المحيطة بهم وحولهم، وبسبب الظروف غير الإنسانية في السجون والأمراض المعدية والبرد الشديد، إلى جانب تعرضهم للقصف العشوائي في أثناء المعارك، وموت بعضهم في أثناء تنقلهم على يد قطّاع الطرق. ومع هذه المعاناة تظهر صورة وحدة المتنافرين، فهؤلاء الذين كانوا يتقاتلون فيما بينهم، ما إن وضعوا في مكان واحد حتى تآلفوا، وهو ديدن الحادثة التاريخية. فقد جمع شملهم تحت سقف واحد، فهم دروز مسلمون وهو مسيحي. هم متهمون بالقتل والنفي وهو بائع بيض بسيط من بيروت، هذه الصورة الظالمة والوحشية التي كانت نتيجة حظه العاثر هو ما أوجده هناك، فهذا الرجل القصير القامة كما وصفته الرواية المدعو حنا، صار سليمان غفار عز الدين، متهم ب 14 دعوى قتل وجرح وحرق، اقتادوه من ميناء بيروت إلى جنب العشرات من الدروز، لكن هذا لم يمنع الظروف الصعبة من أن تفعل ما لم تستطع أيام الحرية فعله في التقريب بين المسيحي والدرزي. فالأخوة الخمسة يولون حنا عناية واهتماما بالغين وكأنه الأخ الخامس فعلاً.

فصورة الظلم العثماني تظهر من خلال الأيام الأخيرة للدولة العثمانية في بلاد الصرب والبلقان. وهي المناطق التي كانت تحت حكم العثمانيين في ذلك الزمان، إن ما يقصه جابر عن أحداث ذلك الزمان واقعي إلى حد ما، فحنا يعقوب مثال لكثير ممن عانوا

28 جابر، ربيع. (2015). دروز بلغراد، حكاية حنا يعقوب، المرجع السابق، ص44.

من همجية التسلط والجبروت وغياب العدل في ذلك الوقت على يد هذا الحكم. وبعد أن يعود حنا إلى قريته ووطنه وعالمه وعائلته الصغيرة التي ترك فيها زوجة شابة وطفلة صغيرة، هيلانة قسطنطين وابنتهما بربارة، إنه يتمكن من الفرار واللحاق بقافلة حج ستمر بدمشق آملا أن يتابع حياته من حيث تقطعت أوصالها متخلصا من الظلم والتهمة السوداء التي ألحقت به، ليكتشف أن الزمن لم يتوقف في أثناء غيابه، فقد غاب كثيرا ولم يبقَ شيء على حاله، فالمرأة الشابة أصبحت كهلة، والطفلة غدت شابة. "جلس حنا يعقوب على الأرض. هذه هيلانة. أنا في البيت... شعر بالأصابع على جسمه تتأكد أنه ليس شبحا. حضن زوجته وابنته وبكى وشهق وملأ رئتيه بالهواء"[29].

4 . رواية راكب الريح ليحيى يخلف:[30]

أ . التعريف بالرواية:

راكب الريح للروائي الفلسطيني يحيى يخلف صدرت حديثاً عن دار الشروق للنشر والتوزيع في 342 صفحة من القطع المتوسط، وزين غلافها لوحة الفنانة التشكيلية السورية ضحى الخطيب، وتعد إضافة نوعية إلى المكتبة العربية والفلسطينية، الصادرة عن دار الشروق للنشر والتوزيع في عمّان ورام الله.

الموضوع: تفاصيل عن تاريخ يافا في القرن الثامن عشر، وأجواء الحياة فيها تحت الحكم العثماني، وتحديداً في السنوات التي شهدت صراعاً بين الناس وقوات "الجندرمة"، وارتباط ذلك بما يقوم به الجيش الإنكشاري من ممارسات تشعل الفتن في أرجاء الدولة، كي يمنعوا السلطان سليم الثالث من تنفيذ الإصلاحات التي يقوم بها، وخاصة تلك المتعلقة منها ببناء جيش قوي يكون بديلاً للجيش الإنكشاري، كما تصوّر الرواية أيام احتلال جيش نابليون بونابرت مدينة يافا، وحصاره مدينة عكا، والمجازر الدموية التي ارتكبها، فجمعت الرواية بين الأسطورة والخيال من جهة، والواقع والتاريخ من جهة أخرى.

29 جابر، ربيع. (2015). دروز بلغراد، حكاية حنا يعقوب، المرجع السابق، ص68.

30 وهو فلسطيني ولد في سمخ الواقعة على الضفة الجنوبية لبحيرة طبرية في فلسطين من مواليد عام 1944. هُجّرت أسرته إلى شرق الأردن بعد النكبة، وعاش في مدينة إربد، وحصل على ليسانس الآداب من جامعة بيروت العربية. عمل في التدريس والصحافة. يعد يحيى يخلف من أشهر كتاب الجيل الثاني من الروائيين الفلسطينيين. أولى رواياته رواية "نجران تحت الصفر" التي حصلت على تقويم من القاهرة بصفتها من أشهر مائة رواية عربية. وعُيّن وزيرا للثقافة في السلطة الفلسطينية ما بين الأعوام 2003–2006، ومن ثم عيّن رئيسا للمجلس الأعلى للثقافة، ورئيسا للجنة الوطنية الفلسطينية للتربية والثقافة والعلوم عام 2007. وتفرّغ للكتابة في 2012. أما مؤلفاته فهي: رواية "نجران تحت الصفر"، بيروت 1977، ورواية "تلك المرأة الوردة" عام 1980، ورواية "تفاح المجانين" بيروت 1982، ورواية "نشيد الحياة" بيروت 1983، ورواية "بحيرة وراء الريح"، وغيرها. وحديثا صدرت له رواية "راكب الريح" 2016.

النوع: رواية تاريخية.

اللغة: استخدم يخلف لغة تمتاز برشاقة البناء والانتقال بين المشاهد بحرفية دون تكلف أو صنعة، بتقنيات روائية متعددة، كسر فيها قوالب القراءة النمطية عند القارئ، لغة رائقة وسلسة من جهة، وعميقة من جهة أخرى، دون إغفال توظيف يخلف الذكي، مصطلحات عربية لم تعد دارجة.

الزمن والمكان: السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، وتصوّر الرواية مدينة يافا بدءاً من عام 1795م.

البطل: يوسف الشخصية المحورية للرواية، الذي يبدو ـ كما رسمها يخلف ـ شخصية أسطورية تتمتع بصفات خارقة، كما يتمتع بجمال فاتن وشجاعة وجرأة كبيرتين. ومهارة وبراعة في الخط العربي والرسم.

ب . صورة الأتراك في رواية راكب الريح:

يتناول الروائي والأديب الفلسطيني "يحيى يخلف" في روايته "راكب الريح" مدينة يافا الفلسطينية في ظل الحكم العثماني في القرن الثامن عشر، متعرضا قبل ذلك لغزو نابليون بونابرت لمدينة يافا وتدميرها، ثم انهزامه وكسر شوكته هو وجيشه وانسحابهم منها، ويأتي هذا العرض من خلال حكاية بطل هذه الرواية "يوسف".

يوسف الشخصية المحورية للرواية، هو الابن الوحيد لصاحب مصنع الصابون في يافا، (يوسف) ابن أحمد آغا (الصابونجي)، الذي شذ عن عائلته التي اشتهرت بصيد السمك وصناعة السفن، ولقد حرص والده على تعليمه علوم الفقه، والحديث، واللغة، وحتى الفرنسية، وكانت شخصيته أسطورية كما رسمها يخلف، وتتمتع بسمات خارقة، ميزته عن بقية أقرانه من سكان مدينة يافا، فتملأ شهرته المدينة بأكملها، وهذا ما جعل منه بطلاً شعبياً، ففي بداية مراهقته اشتهر بركوب الريح، والقفز من أعلى برج على سور يافا إلى البحر، فهو يثب وثبة نمر، ويطير في الفراغ، فيحظى بإعجاب كل سكان يافا بمن فيهم نساء حرملك الوالي العثماني، ويصبح قبلة للنساء وشباب البلد الثائرين على الاحتلال، وتظهر قدراته الخارقة، عندما واجه الحوت الذي سكن أمامه هادئا محملقًا فيه، فعاد أدراجه دون أن يؤذيه، فظن الوالي العثماني وأهل يافا أنه حوت النبي يونس، وأن للفتى قدرات خارقة. وهناك عديد من

الحكايات كحكاية الحوت تقص عن يوسف البطل الأسطورة، من بينها قيامه بمفرده بهزيمة كتيبة من "الإنكشاريين"، بمجرد أن رأى آثار الحرق في بازاره، الذي تسبب بعضهم فيه، حتى بات يصفه أهل يافا بـ"هرقل"، ومن بينهم "العيطموس" التي وجدت في فعله الخارق إنقاذاً لسلطة الوالي والمدينة من نفوذ هؤلاء الغرباء، بينما كان هو على قناعة بأن "قرينه" الذي يسكنه أو يتلبسه هو من يقوم بكل هذه الأفعال الخارقة.

"وذاع صيت يوسف وبسالته، ونسجت عنه القصص والحكايات، وسمّوه في سيرهم وحكاياتهم يوسف اليافاوي، وبعضهم سمّاه يوسف الذي يركب الريح. أما الرواة وعازفو الرباب، فقط أطلقوا عليه اسم: راكب الريح. وفي قرى الخليل، أضافوا كلمة "صندلاوياً"، فصار "راكب الريح صندلاوي"، أي راكب الريح جنّابي، وهو يضع رجلاً فوق أخرى، دلالة على أنه في ذروة مجده فوق الريح"[31].

وأول صورة للأتراك في هذه الرواية تظهر في مدينة يافا بدءاً من عام 1795، وأجواء الحياة فيها تحت الحكم العثماني، في السنوات التي عاشت بها المدينة صراعاً بين الناس وقوات "الجندرمة"، وارتباط ذلك بما يقوم به الجيش الذي عرف بالإنكشاري، من ممارسات تشعل الدمار والظلم والفتن في أرجاء الدولة، فقد مُنع السلطان سليم الثالث من تنفيذ الإصلاحات التي يقوم بها، وخاصة تلك المتعلقة منها ببناء جيش قوي يكون بديلاً للجيش الإنكشاري. فهي تعرض مرحلة حكم السلطان العثماني وجيشه الإنكشاري الذي يبطش بالشعب الفلسطيني الأعزل، بينما الوالي لا سلطة له عليهم، يوم غزا القائد المصري محمد بك أبو الذهب يافا؛ لتخليصها من الزعيم ظاهر العمر، وإعادتها إلى حظيرة الإمبراطورية العثمانية.

"قالت له إنها عادت لتوّها من قصر الوالي، وإنها علمت أن هذه الفتنة من صنع الإنكشاريين، وهذا العمل يهدف إلى منع الإصلاحات التي يجريها السلطان سليم الثالث، وإن الوالي يتشاور مع الوجهاء وممثلي الأئمة والمشايخ والكنائس من أجل وأد الفتنة، ووضع حد لعسكر الإنكشارية الغرباء الذين جاءوا من خارج المدينة"[32].

31 يخلف، يحيى. (2016). راكب الريح، ط1. عمان، الأردن، دار الشروق للنشر، ص45.

32 يخلف، يحيى. (2016). راكب الريح، المرجع نفسه، ص58.

وتصور الرواية فترة احتلال جيش نابليون بونابرت مدينة يافا، وحصاره مدينة عكا، والمجازر الدموية التي ارتكبها والدمار الذي أحدثه في المدينة، تلك الأيام التي شهدت حربا دموية وتخريبا وخرابا حتى غزو نابليون لفلسطين وهزيمته المدوية بعد أن دمر يافا، وقتل جنوده بوحشية عددا كبيرا من السكان، وخربوا كل ما فيها، واغتصبوا النساء وعاثوا في الأرض فسادا، ومقاومة الأهالي له بالسلاح الأبيض واستبسالهم في الدفاع عن بيوتهم، حتى انسحب منها تاركاً أرضها غارقة في الدماء، وفي وباء الطاعون الذي تفشى فيها بسبب الجثث المرمية هنا وهناك.

ومع هذه الأحداث التاريخية يطلعنا يخلف على قصة عشق للبطل، وصورة أخرى للأتراك في دسائس القصور والحرملك والجواري، فيعرض قصة عاطفية بين "يوسف و" العيطموس"؛ الأميرة المتحدرة من الأناضول التي عرفته بها ابنة قنصل الدولة العليا العثمانية في فرنسا، فهذه الأميرة سمعت بالفن والرسم العظيم الذي يتمتع به، فطلبت منه رسمها، وبينما هو كذلك وقع في حبها، ولكن بعد أن تتبدى لديه قدرات جسدية خارقة للمألوف، فتجده يتمكن وحده من هزيمة جيش الإنكشاريين، عندما تعدّوا على أهل يافا، ضمن صراع مع السلطان العثماني ووالية على يافا، فكان هذا مدعاة لنفيه، وإبعاده عن "العيطموس"، المرأة فائقة الجمال. فيتم نفيه إلى دمشق، وبعدها يذهب إلى الهند، فيعمل لدى فريق من المتدينين الهنود في الخط وتزويق كتاب لحكيم هندي وتزيينه، يريد أن يوصل حكمة الشرق إلى الغرب، ثم يتعلم يوسف من الحكيم الهندي فنون السيطرة الإيجابية على القوة الخارقة، التي تكمن في داخله، والتي تمكنه من التحكم بها من مركز العقل والتأمل الإيجابي، ويستخدم هذه القوة الخارقة حين عودته إلى يافا، وبالرغم من ذلك يبقى قلبه متيما معلقاً بها.

وبعد مرور زمن طويل يعود إلى يافا بقوته العظيمة يحمل هدفين عظيمين هما: المشاركة في القتال فبعدما شاهد الدمار يعم المدينة، نجده يستخدم قوته الخارقة في قتال جنود نابليون، فينتصر هو ورفاقه الثوار عليهم، ويشارك في عودة الحياة الطبيعية إلى يافا. وكان يبحث عن والديه ثم عرف أنهما قتلا في الاجتياح الفرنسي الغاشم، ما أثقل عليه جراحه، والبحث عن أميرته، ليجدها بالرغم من كل ما حصل في المدينة من دمار، قد خبأت لوحتها، ولكنه وجدها مريضة بالطاعون الذي ضرب البلاد، تلك المرأة التي كان حبه لها هو السبب في إبعاده إجباريا عن أرض الوطن، وعمل المستحيل مع الحكيم الهندي لإنقاذ حياتها، فتعافت

من مرضها أخيراً. فالرواية تعرض واقع الحياة الاجتماعية وتفاصيلها، للحقبة التاريخية التي اختار يخلف أن تعيش فيها شخصيات روايته. "لقد تعرضت للخطف؛ خطفها الجنود العثمانيون الإنكشاريون الذين لا سلطة لأحد عليهم حتى الوالي نفسه. وفرضت الأقدار عليه حياة بائسة في زنزانة اسمها قصر السلطانة، فيها من الذكور خصيان بؤساء، وفحول يصطادون الجواري. وتتعارك فيها المسجونات من السبايا من أجل الظفر برضا السجان، وكل منهن تحلم بالحمل من سلطان شبق يحكم دولة، ويغرق بالملذات، ولا يعير انتباها لرعيته"[33].

المبحث الثالث: الدراسات السابقة:

دراسة عبد اللي، (2018م) بعنوان: **تركيا بعيوني**[34]. هدفت الدراسة إلى توضيح الصورة النمطية للهوية التركية، والإشكاليات التاريخية بين العرب والترك، وتأثير الدراما التركية في المجتمع العربي، فضلاً عن موضوعات فلكلورية مقارنة مثل الأزياء والأمثال الشعبية، كما ألقت ضوءاً على أعمال أدبية تتحدث عن التاريخ التركي والأدب الإسلامي التركي، إلى جانب الأدب النسوي العثماني، وربما لم يسبق أحد هذه الدراسة في الكتابة عن هذا الموضوع، كما أن الدراسة تحوي على روايات قامت بترجمتها (لأورهان باموق) و(أحمد أميت) وغيرهما. تمثلت مشكلة الدراسة في طرح الإشكالية بين الجانبين النظري والعملي لعملية الترجمة انطلاقاً من تجربة الباحث، فقد ألقى الضوء على إشكاليات الترجمة بين اللغتين العربية والتركية، وترجمة الرواية العربية التي تتحدث عن التاريخ التركي إلى اللغة التركية بشكل خاص، فضلاً عن حديثه عن القاص السوري الكبير حسيب كيالي بصفته مترجماً هذه المرة. ومن أهم نتائج هذه الدراسة ذهاب القارئ العربي من خلال الرواية التي تتحدث عن التاريخ التركي إلى مسائل كان يجهلها عن الثقافتين العربية والتركية إلى جانب إلقاء الضوء على جوانب من سيرة الباحث الثقافية.

33 يخلف، يحيى. (2016). راكب الريح، المرجع نفسه، ص68.

34 عبد اللي، عبد القادر. (2018م). تركيا بعيوني. تركيا–غازي عنتاب، دار ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع.

دراسة الأسطة، (2001م) بعنوان: **صورة الأتراك في نماذج قصصية من بلاد الشام** [35]. هدفت الدراسة إلى معرفة صورة الأتراك في بلاد الشام، تألفت عينة الدراسة فيها من أربعة نصوص قصصية لأربعة أدباء، من لبنان وفلسطين وسوريا والأردن، أنجزت في الأعوام 1939 و1978و1977و1994، تتبع فيها الباحث صورة الأتراك، تمثلت مشكلة الدراسة في أن الزمن الروائي لهذه النصوص لا يتطابق والزمن الكتابي، ويكاد الزمن الكتابي لأكثرها يتشابه، فيكتب الأدباء عن فترة حكم الأتراك للبلدان العربية، كما تبرز أهم مشاكل الدراسة كون اعتماد الباحث على استخراج صورة الأتراك، على النصوص نفسها عينة الدراسة، دون أن يعود إلى كتب التاريخ والمجتمع والسياسة للتأكد من مدى صدقها، ومن أهم نتائج الدراسة الإشارة إلى أن هناك دارسين عرباً توقفوا أمام موقف الأدباء من تركيا، ولئن كنا نحن مهتمين بالكتابة عن تصور أدبائنا للأتراك، فإن هناك دارسين عكفوا على دراسة صورة العرب لدى الأتراك. دراسة الداقوقي، (1996م) بعنوان **صورة العرب لدى الأتراك** [36]، هدفت الدراسة إلى معرفة نظرة الأتراك للعرب ووصف تلك النظرة بأنهم يذكرون العرب أعداء وخونة وطاعني الأتراك في الظهر. تمثلت مشكلة الدراسة بكونها أهملت الكثير من الروايات التي تختلف فيها صورة العرب تحت الحكم العثماني في أيامه الأخيرة، والتي تصف العرب بأنهم كانوا يبحثون عن حريتهم واستقلالهم وتحررهم من نير الأتراك. ومن أهم نتائج الدراسة أن الموقع يترك تأثيره في الموقف وتفسير هذه المقولة الاختلاف في التصور للذات القومية وللذات غير القومية.

دراسة عقلة (Oqlah, 2017)، بعنوان: **الدولة العثمانية في الروايات العربية زمن الخيول البيضاء نموذجاً** [37]. هدفت الدراسة إلى معرفة أثر الدولة العثمانية في الدول العربية ومعرفة كل تغير طرأ على الدولة العثمانية من ضعف وقوة ومن انتصار وهزيمة،

35 الأسطة، عادل. (2001م). صورة الأتراك في نماذج قصصية من بلاد الشام. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ص65.

36 الداقوقي، إبراهيم. (1996م). صورة العرب لدى الأتراك. بيروت، دار الفجر للنشر والتوزيع.

37 عقلة، نسرين. (2017). الدولة العثمانية في الروايات العربية زمن الخيول البيضاء نموذجاً. مجلة جامعة سكاريا "Journal of Sakarya University". المجلد 19، العدد (23)، ص 169-194.

وما أثر ذلك في الأدب العربي من شعر ونثر وخصوصاً الروايات العربية، وقد تم استقراء صورة الدولة العثمانية في ثماني عينات من الروايات العربية بشكل عام، وأخذ رواية "زمن الخيول البيضاء" الفلسطينية للكاتب إبراهيم نصر الله نموذجاً تفصيلياً لاستعراض صورة الدولة العثمانية فيها، وتمثلت مشكلة الدراسة في تقديم الدولة العثمانية دولة ظلم واستبداد وقسوة، ومن أهم نتائج الدراسة أن الروايات لم تكن منجزة ضد الدولة العثمانية بل هي كذلك عكست صور الظلم من دول أخرى كبريطانيا وفرنسا وإسرائيل وغيرها.

ويلاحَظ من مجموع الدراسات السابقة أن للدولة العثمانية تواجدًا واضحًا لا يمكن تجاوزه، أو إهمال تسليط الضوء عليه؛ فقد عمد الدارسون العرب في رواياتهم المختلفة إلى توضيح صورة النمط التركي والتواجد العثماني طيلة فترة ليست بالقصيرة؛ فتحدثت عن التاريخ التركي الإسلامي واختلاط الجنس التركي بالجنس العربي ومدى تلاقح الثقافات بينهما بشكل عام في الحياة الاعتيادية وفي الفلكلور والتراث، وإبراز تفاصيل النسيج التركي من أمثال شعبية وأزياء وأسلوب معيشة، وصولًا إلى الحكم والسيادة وإدارة الدولة، وقد برزت صورة الأتراك العثمانيين بشكل واضح، قريبة جدا من الواقع، بل هو الواقع عينه، وذلك من خلال السرد القصصي في الدراسات المذكورة آنفا وغيرها. ويلحظ الدارس والمتفحص لهذا الإنتاج الأدبي أن الروايات العربية قد تسلسلت تاريخيا في عرض صورة الدولة العثمانية وأثرها وما طرأ عليها من فترات ضعف واضطراب وفترات قوة. وقد اختلفت النظرة للدولة العثمانية في أيامها الأخيرة، فتم تصوير الظلم والاستبداد الذي جعل العرب يبحثون بشتى الوسائل عن حريتهم واستقلالهم ونهضتهم.

منهج الدراسة:

انتّهجت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي؛ لأن طبيعة الدّراسة اقتضت ذلك، إلى جانب المنهج التحليلي؛ لتذوق النصوص الروائية، وتوضيح مغزاها، والوقوف على صورة الأتراك، وكذلك المنهج الوصفي؛ لوصف صورة الأتراك في الروايات المذكورة.

عينة البحث:

يعتمد البحث على أربع روايات منتقاة من روايات بلاد الشام: رواية سفر برلك ودروب القفر لسليمان القوابعة. ورواية مدارات الشرق (الأشرعة) لنبيل سليمان. ورواية دروز بلغراد (حكاية حنا يعقوب) لربيع جابر. ورواية راكب الريح ليحيى يخلف. أما سبب اختيار العينة فيعود إلى وضوحها في عرض صورة الأتراك، وتمكن الرواة من عرض المادة المطروحة. والروايات السابقة تدفع بقارئها إلى أن يعيد النظر فيها غير مرة، ليجد في كل مرة شيئاً لم يكتشفه من قبل، وعلى هذا يمكن أن يكون فيها غير مجال

للبحث والتحليل والنقد، ولا أدعي أنني قد أتيت على كل ما فيها، ولكنها دراسة تسهم ـ ولو بقدرـ في إيجاد سبيل من السبل الممكنة لتحليل النصوص الإبداعية.

الخاتمة:

لقد كان للعثمانيين النصيب الأكبر من الأدب شعرا ونثرا، وذلك لطول المدة التي استمر فيها حكم العثمانيين والتي تبلغ أكثر من أربعة قرون، وكما هو معلوم فإن الأدب هو المرآة التي تعكس واقع أية أمة أو أي شعب، ويتجلى ذلك في الإنتاجات الأدبية التي تصدر عن الأدباء والكتاب والشعراء في تلك الفترة، وقد انعكست صورة التركي واضحة جلية في رواياتهم.

ومن خلال ما تم عرضه وصل البحث إلى الخلاصة التالية: إن الرواية شكل من أشكال الأدب المهيمن والمسيطر على الساحة الأدبية، فقد استطاعت الرواية العربية عامة والشامية (بلاد الشام) خاصة في أقل من قرن أن تحدث صدىً واسعا في منظومة الأدب العربي المعاصر عامة، وذلك تبعا للموضوعات المطروحة وطرق عرضها ولغتها.

وفي الحديث عن الروايات السابقة يتبين أن كلاً من سليمان القوابعة ونبيل سليمان وربيع جابر ويحيى يخلف، قد عرضوا هموم الواقع الذي كانت تعيشه بلاد الشام إزاء الحكم التركي، وصور الدمار الذي ورثه العرب عامة جراء هذا الحكم في فترة معينة، فقد جسدوا لنا التاريخ بصورة أدبية لها وقع وتأثير على المتلقي والقارئ، والموضوع ليس جديدا، ولكن الجديد فيه هو طريقة العرض والصراحة المطلقة في العرض واللغة والأسلوب الدرامي المشوق الذي كشف عن تجارب روائية عظيمة؛ فالروايات السابقة كتبت عن الأتراك يوم كان هؤلاء يحكمون الوطن العربي الذي عانى في فترة حكمهم الأخيرة من الفقر والقمع والتخلف (1908–1922)، وهذا جعل العرب لقمة سائغة لمستعمر جديد هو بريطانيا وفرنسا. وتعرض الروايات السابقة الأتراك وسلوكياتهم السيئة التي كانوا يمارسونها تجاه العرب. وكانت الكتابة عن الأتراك تخضع لرؤى الكتاب وتوجهاتهم ونظرتهم لظلم الأتراك من حولهم.

ونصل في النهاية وبعد قراءة ما كتب عن الأتراك، إلى أنَّ صورة الأتراك كانت متفاوتة بشكل واضح؛ فهي حسنة في فترات معينة وسيئة في فترات أخرى – الفترة الأخيرة–، وربما يعود سبب ذلك إلى ما كانت عليه أوضاع الشعب العربي في نهاية الحكم العثماني للبلدان العربية، وهي أوضاع لم تكن حسنة في أي حال. وكان الروائيون الذين تناولتهم الدراسة خير نموذج معاصر

للكتابة في بلاد الشام، فقد كرسوا طاقاتهم وجهودهم الفنية لمعالجة فن الرواية، فوفقوا إلى أن يضيفوا إلى المكتبة العربية عامة والشامية خاصة عددا غير قليل من الروايات الممتازة التي يشهد لها بتفوقها في الفن، كما استطاعوا من خلال الروايات السابقة أن يبنوا عالما روائيا عبّروا فيه عن واقع بلاد الشام والعرب خلال فترة الحكم التركي وما بعده.

وبالرغم من هذه الإنجازات الأدبية والإبداعات الروائية في تصوير حقبة من أهم الحقب الإسلامية التي توالت على البلدان العربية فإننا نقول: إن هذا الجانب الأدبي الروائي غير كافٍ –من وجهة نظر الباحث– لنقل تاريخ الدولة العثمانية بشكل كامل، ولكنه داعم كبير ومهم ورئيسي لحقول العلم الأخرى وعلى رأسها علم التأريخ.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم، خليل. (2014). الرواية الأردنية في مئة عام، مجلة قاب قوسين، الأردن، العدد 24.
2. إبراهيم، مصطفى والزيات، أحمد وعبد القادر، حامد والنجار، محمد. (1989). المعجم الوسيط، ج1. القاهرة، دار الدعوة.
3. الأسطة، عادل. (2001م). صورة الأتراك في نماذج قصصية من بلاد الشام. رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.
4. بعيو، غانية. (2009). التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجاً 1839- 1876. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائر.
5. جابر، ربيع. (2015). دروز بلغراد، حكاية حنا يعقوب، ط5. بيروت، دار الآداب.
6. الحصري، ساطع. (1960). البلاد العربية والدولة العثمانية. ط2. بيروت، دار العلم للملايين.
7. الداقوقي، إبراهيم. (1996م). صورة العرب لدى الأتراك. بيروت، دار الفجر للنشر والتوزيع.
8. الداقوقي، إبراهيم. (2001). صورة الأتراك لدى العرب. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

9. السعافين، إبراهيم. (1995). الرواية في الأردن، ط1. عمان، منشورات لجنة تاريخ الأردن.

10. سليمان، نبيل. (1990م). مدارات الشرق . الأشرعة. ط1، سوريا–اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع.

11. سيريس، ناهد. (د. ت). الرواية السورية، مجلة الأدب، العدد 25.

12. الشوابكة، مهند. (2010). الرواية الأردنية (1995–2000م)، أطروحة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان–الأردن.

13. عادل، إسماعيل والخوري، أميل. (1961). السياسة الدولية في الشرق العربي، من سنة 1789 إلى سنة 1958، ج4، بيروت، دار النشر للسياسة والتاريخ.

14. عبد اللي، عبد القادر. (2018م). تركيا بعيوني. تركيا–غازي عنتاب، دار ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع.

15. عقلة، نسرين. (2017). الدولة العثمانية في الروايات العربية زمن الخيول البيضاء نموذجاً. مجلة جامعة سكاريا "Journal of Sakarya University". المجلد 19، العدد (23)، ص 169–194.

16. فتحي، إبراهيم. (1988). معجم المصطلحات الأدبية. تونس، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين.

17. القوابعة، سليمان. (2010). رواية سفر برلك، ودروب القفر. عمان–الأردن، وزارة الثقافة، مطبعة السفير.

18. الكركي، خالد (1986). الرواية في الأردن (مقدمة). نشر بدعم من الجامعة الأردنية، عمان–الأردن.

19. مريدن، عزيزة. (1971). القصة والرواية. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

20. المصري، محمد عبد الغني والبرازي، محمد الباكرى. (2002). تحليل النص الأدبي بين النظرية والتطبيق. عمان، مؤسسة الورق للنشر والتوزيع.

21. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على. (1993). لسان العرب، ط3. بيروت، دار صادر.

22. أبو هيف، عبد الله. (2002). رؤى التاريخ في الرواية العربية، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العدد 372.

23. يخلف، يحيى. (2016). راكب الريح، ط1. عمان، الأردن، دار الشروق للنشر.

24. يعقوب، إميل وبركة، بسام. (1987). قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، ط1. بيروت، دار الملايين.

The image of the Turks in the Levant novel

Mohamed Taha Kayed Shboul

Ph.D. in Arabic Language and Literature

Ministry of Education / Jordan

mohammad2shbool@gmail.com

Abstract:

The Ottoman Empire was one of the most important countries that influenced the Arab world in every way of life. More specifically, the Ottomans had an imprint on the Arabic literature: poetry, prose and novels. In this study, the researcher highlighted the image of the Ottoman Empire using four different Arabic novels written in different years (2005, 2010, 2012 and 2016) and in four different Arab countries (Syria, Jordan, Lebanon and Palestine). The selected novels were: "Safar Barlak wa-durub al-qafr," by Sulayman Qawabia, "Madarat Al Sharq" by Nabeel Suleiman, "The Druze of Belgrade" by Rabee Jaber, and "The Rider of the Wind" by Yaya Yakhlof. In "Safar Barlak wa-durub al-qafr", the researcher highlighted the image of the obnoxious conscription policy, which the Ottoman Empire imposed on its citizens during World War I. In "Madarat Al Sharq" the key and decisive period of life in Syria was described. In "The Druze of Belgrade", the image of the civil war between the Druze and Christians in the Mount Lebanon Governorate in1860 was highlighted. In "The Rider of the Wind" the image of daily life and history of Jaffa City under the Ottoman ruling were analyzed.

Keywords: Turks, Levant novels, Safar Barlak wa-durub al-qafr, Madarat Al Sharq, The Druze of Belgrade, The Rider of the Wind.